رسالة المؤرخ

في عصور الاضطراب

الدكتور قسطنطين زريق
استاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية

يختار أحدنا نوع عمله في الحياة ، او تدفعه الظروف اليه ، فيحمل اعباءه يوماً بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، الى أن يصبح ذلك العمل أمراً طبيعيًّا لا يثير في نفس صاحبه شكّاً او حيرة او تساؤلاً . وليس من ريب عندي في ان أكثرنا لو رجعوا الى نفوسهم ، ونظروا في حياتهم نظراً دقيقاً ، لوجدوا ان أعمالهم وطرق معيشتهم قد غدت عادات متأصلة في كيانهم ، وانهم يجرون فيها جرياً آليًّا ليس فيه كبير تفكير او تفاعل داخلي ، بل ان هذه الأعمال تصبح قسماً من ذواتهم لا ينفصل عنها ، وقلما يستطيعون — او يحاولون — ان ينتزعوها من نفوسهم وان ينظروا اليها نظراً موضوعيًّا مجرداً ، ويتساءلوا عن معناها ومغزاها ، وعن قيمتها في حياتهم الخاصة وفي حياة من يتصل بهم من الأفراد والجماعات

هذا الموقف يصلح في عصور السكينة والرخاء . أما في عصور الضيق والاضطراب ، حين تهتز النفوس من جذورها ، وتختل الحياة من أساسها ، فحريٌّ ان يكون الأمر على غير ذلك . في مثل هذه الأوقات يجب ان تنعكس الأزمة الخارجية في النفس ، فتثير فيها الأسئلة والشكوك وتخرجها من خمودها المعتاد ومن سيرها الآلي الى نوع جديد من النظر والتفكير ، وتدفعها الى ان تتأمل في حياتها وعملها وغايتها تأملاً مجرداً لا تردد فيه ولا التواء . فاذا جئنا نتفحص حياتنا في هذه الأيام العصيبة ، وجدنا ان أغلبنا لم يتأثر بالأزمة التي نجتازها هذا التأثر ، وان الشدة التي نعانيها ان كانت قد خلقت فينا قلقاً وخوفاً ، فهو القلق على معيشتنا الخارجية لا على جوهر كياننا ورسالتنا في الحياة ، وهو الخوف من تضاؤل مواردنا المادية لا من بعدنا عن الحق والصواب في بناء حياتنا الخاصة والمساهمة في انهاض مجموعنا وأمتنا . واذا كنا لا نطالب انماء هذا النوع من القلق والخوف من الناس جميعاً ، فلا أقل من ان نطلبه من رجال « الفكر » أولئك الذين يفرض فيهم أنهم يعملون في خدمة المثل العليا ، ويسهرون على قوى الأمة العقلية والروحية ، ويحتلون مقاعد القيادة الحقيقية في مجتمعهم . فهم مسؤولون لدى التاريخ ولدى

الحقيقة عن نوع قيادتهم ، وعن درجة تأديتهم مهمتهم ، وعن كيفية مجابهتهم للازمة وتوجيههم قوى الأمة لتحملها والتغلب عليها . فحري بهم ان يقفوا في مثل هذه الاوقات موقف المتسائل ، وان يشعروا بأزمة داخلية تقوم في نفوسهم فتحملهم على ان يفكروا في حياتهم وفي عملهم تفكيراً أساسيًّا جديداً . فان هم لم يقطعوا هذه الخطوة الاولى من جهادهم النفسي الداخلي ، فلا أمل لهم بان يقوموا بواجبهم ، وخليق بهم عندئذ ان يتخلوا عن مقاعد القيادة الفكرية وأن لا يدَّعوا انهم من خدمة العقل والروح ، فهم موظفون فحسب ، او طلاب مادة او لهو أو اي شيء آخر عدا الأدب الخالص ، أو العلم الصحيح ، أو الفلسفة الحيَّة أو سواها من مظاهر الفكر النير المبدع وتعساً لأمة لم يرتفع قادة نفوسها عن هذا الدرك !

ولقد حدث ان اخترت في الحياة مهنة التأريخ ، وان وقفت نفسي على البحث في ماضي أمتي العربية وعلى جلاء بعض نواحي هذا الماضي لمن يتصل بي من الطلبة او غيرهم ، وكثيراً ما تساءلت في غضون هذه الازمة الطارئة بل قبلها — لان الأمة العربية تعيش في أزمة دائمة الى ان تستقر في الحياة الجديدة التي تطمح اليها — أقول : كثيراً ما تساءلت عن معنى مهنتي هذه ، وعن الرسالة الخاصة التي يجب على المؤرخين تأديتها تجاه هذا الاضطراب العميق الشامل . ولا اكتم القراء اني وجدت في ايضاح ذلك لنفسي صعوبة جمة ، واني لا ازال اشعر بشيء من الحيرة والارتباك ، وأرى امامي غموضاً وابهاماً يمنعاني من ان ارسم في ذهني صورة جلية كاملة . ولذا فلا يخرج ما سأقوله في ما يلي عن بضع ملاحظات تمهيدية وخواطر اولية لا تزال دون الرأي الناضج والحكم القاطع ، أعرضها امام القارىء وليس يشفع فيها سوى انها صادرة عن رغبة في الوصول الى الحق وعن عزم اكيد على النظر الداخلي ومحاسبة النفس

***

مهمة المؤرخ في عصور الاضطراب تبدأ في نفسه . فما لم يكن للازمات أثر في ذات المؤرخ ، فمن المحال ان يكون لها بواسطته ، أثر في مجتمعه . اي ان كل رسالة جديدة يؤديها الانسان يجب ان يسبقها تبدل اساسي في كيانه . والتبدل الاساسي الذي يجب ان تحدثه الأزمة في نفس المؤرخ هي أن تدفعه الى ان يجدد تفكيره في معنى « التأريخ » كعلم وفي غايته وأسلوبه ، وفي معنى «التاريخ»[1] كميدان لتنازع القوى البشرية والطبيعية ، فيقوم المؤرخ بمهمته على ضوء هذا التفكير الجديد وبالنشاط والحياة اللذين يخلقهما هذا التجدد في نفسه

ان العمل التأريخي يتناول ثلاث نواح مختلفة : أولها الوصول الى حقيقة الماضي كما هي ،

(١) نستعمل «التاريخ» بتليين الهمزة في هذه المقالة بمعنى الحياة الماضية ، و «التأريخ» بمعنى العلم الذي يصف تلك الحياة

أي أن نتصور في ذهننا بالضبط الحوادث الماضية كما حدثت تماماً هنا يكون المؤرخ عالماً ، ويشاركه سواء من العلماء في طلب الحقيقة ، لا يخالفهم الا في المادة التي يختارها والميدان الذي يجول فيه ، وهي — كما ذكرنا — ماضي الحياة البشرية . على ان هذه المهمة العلمية صعبة شائكة لأن المادة التي تستخلص منها الاحكام التاريخية كثيراً ما تكون مشتتة ناقصة ، أو ملونة بغايات أصحابها ونزعاتهم الخاصة ، فعلى المؤرخ ان يجمعها ويفهمها ويوفق بينها ويستخرج منها الحقيقة كما حدثت ، أو بالأحرى ان يتصور الحقيقة كما حدثت لأن طبيعته هي أبداً تصورية لا حسية فكل حادثة تاريخية جرت مرة واحدة في الماضي لا أكثر ، وهي فريدة في نوعها لا يمكن أن تجري مرة ثانية كما جرت اولاً بالضبط ، بخلاف حوادث العالم الطبيعي التي تتكرر وتتعدد والتي يمكنك ان تشاهدها بعينك او ان تحدثها بنفسك . ولهذا كان العمل العلمي التاريخي غاية في الصعوبة ، وهو يتطلب جهوداً متنوعة ، وصفات متعددة قلما تجتمع للشخص الواحد ، فهو لذلك موزع بين أفراد وجماعات يختص كل منهم بناحية من نواحي البحث أو دور من أدوار الماضي . فمن واجب المؤرخ ، المجدد تفكيره في معنى عمله بضغط الأزمة النازلة به وبمجتمعه ، ان يوضح لنفسه هذه الغاية العلمية للتأريخ وخصائص الأسلوب الذي يؤدي اليها والصفات العقلية والأدبية والروحية التي تتطلبها ، وان يبرز جليّاً القسم الخاص به من هذا العمل العلمي وعلاقته بالاقسام الأخرى ، وبكلمة وجيزة : ان يفهم فهماً جديداً حدود وظيفته وطبيعتها ومؤداها . فاذا كان مثلاً ينشر اصلاً من الأصول القديمة ، وجب عليه أن يجلو في ذهنه معنى النشر وقيمته ، ومقامه من البحث التأريخي ، والأسس التي يقوم عليها والغاية التي يسعى اليها ، وبذلك يأمن من الضياع في الجزئيات ومن تفتت شخصيته تحت ضغط عمله اليومي المتكرر . وهكذا يجب ان يكون عمل الأزمة وأثرها في المؤرخ — بل في كل مفكر — ان تهزه من أصوله ، وان تعيد له شخصيته ، وتنقذها من خطر الانحلال والضياع .

أما الناحية الثانية من العمل التأريخي ، فهي التأليف التأريخي : أي اظهار النتائج التي توصل اليها البحث العلمي الذي وصفناه . لأن حقائق الماضي لا قيمة فعلية لها ما لم تنشر ويطلع عليها الناس وينموا باطلاعهم عليها عقولهم ونفوسهم ، وهنا يفرض على المؤرخ في أوقات الاضطراب ان يجدد تفكيره في نوع عمله التأليفي ، في العصر الذي يعنى به ، في الموضوعات التي يتناولها ، في أسلوب العرض الذي ينهجه . ذلك ان جميع نواحي الماضي ، اذا قيست بمقياس العلم المجرد ، تستحق — بل تستوجب — ان تكون موضوع الدرس والبحث والاستقراء ، لا فرق بين الواحدة والأخرى مطلقاً ، لأن العلم لا يعرف الا مقياساً واحداً تتساوى عنده جميع الاحداث تساوياً تاماً : هو مقياس الحقيقة المجردة التي يجب ان يسعى اليها من كل ناحية وبكل طريقة

ممكنة . على ان حاجات مجتمع ما في دور من الأدوار ، قد تجعل لبعض الأعصر الماضية منزلتها الخاصة ، ولبعض الموضوعات خطرها الذاتي ، نظراً لعلاقتها الماسة بالنزعات التي يعيش بها عصر المؤرخ وبيئته . فمجتمعنا العربي الحاضر مثلاً هو اليوم في وسط هبة قومية تسعى الى حياة ناهضة جديدة . فحالته هذه تحتم على مفكريه ان يهتموا اولاً بالمسائل التي تثيرها هذه النهضة القومية ، وتتطلب من المؤرخين ان يوجهوا عنايتهم الى أصول هذه المسائل في الماضي القريب والبعيد . كأن يبحثوا مثلاً في عوامل القوة وعوامل الضعف في المجتمع العربي الماضي ، او في العناصر الباقية الخالدة في المدنية العربية ، او في المشكلات الأساسية التي جابهها العقل العربي والنفس العربية وكيفية مجابهتها إياها . هذه الموضوعات يجب في ما أعتقد ، ان تنال من اهتمام المؤرخين العرب في الوقت الحاضر أكثر مما تناله الموضوعات الأخرى من التاريخ العربي ، لأنها أوثق صلة بالحاضر وأشد اتصالاً بمشكلاته ونزعاته . أقول هذا وانا علم اني أثير به انتقاد المتمسكين بالمبدأ العلمي الخالص ، الذين لا يقيمون للحاجات العملية وزناً في البحث التاريخي ، كما اني اقر بان هذا التمييز بين موضوعات التاريخ قد يضيق افق الباحثين وبالتالي افق مجتمعهم وقد يجر الى نتائج اخرى غير مرضية ، ولكني لا استطيع مع ذلك الا ان اشعر ان التنظيم الذي تقوم عليه الحياة الحديثة بكاملها يجب ان يطبق في هذه الناحية العلمية التاريخية فيقدم الأهم (أي الألصق بالحاضر) على المهم ، والمهم على التافه ولذا وجب — في نظري — على المؤرخ في عصور الاضطراب ان ينتبه من غفلته وان يتفهم حاجات مجتمعه ومطالبه ، وان يختار على ضوء هذا الفهم الجديد الحي نوع التأليف الذي ينصرف اليه وأسلوبه ، متقيداً في هذا كله بالشرائط العلمية الصحيحة ، لأن الحق وحده في النهاية يسود ، وما يبنى على غير الحق عبث زائل

غير ان مجرد الوصول الى حقائق الماضي وعرضها ليس كل عمل المؤرخ . فهناك بعدئذ تعليله لهذه الحقائق وحكمه عليها ، وبذلك يتخطى المؤرخ دائرة العلم الى الفلسفة ، فينظر في العوامل الفعالة التي تسير الحوادث البشرية : أهي القوى الطبيعية المنبعثة عن المناخ وطبيعة الأرض وموقع البلاد ، ام المنازعات الاقتصادية في سبيل العيش والكسب المادي ، ام حب السيطرة والطموح الى السيادة ، ام الصراع بين الافكار والشخصيات والارادات الانسانية ؛ كذلك يحكم المؤرخ على قيمة الحضارات المختلفة ، على الأمم وطبيعة حياتها ونوع مآثرها . ولكنه لا يستطيع ان يفعل ذلك ما لم يكن قبلاً قد بنى لنفسه فلسفة خاصة يحكم على الحوادث على أساسها ويقيمها بمقياسها ، ونظم تفكيره في نفسه وفي العالم بعقيدة فكرية ثابتة تعبر له عن الحقيقة النهائية في الكون والحياة . وبكلمة أخرى لا بد للمؤرخ لتأدية مهمته كاملة من ان يكون نفسه فلسفياً ، ويرتفع فوق الحوادث التي يصفها ليقدر قيمتها ويحكم عليها . وهنا ايضاً أخشى ألا

يوافقني اولئك المؤرخون المتقيدون بالغاية العلمية البحتة الذين يعتبرون مهمتهم قاصرة على وصف الحوادث دون الحكم عليها . وعندي ان هذا الوصف نفسه لا يكون صحيحاً كاملاً الا اذا كان على ضوء نظرة شاملة وبتأثير تفكير تعليلي عميق . فمن خصائص الازمات أو الاضطرابات — اذا شعر بها المؤرخ شعوراً داخلياً كما يترتب عليه أن يفعل كان حقيقي لعصره وكشارك لمجتمعه في حياته — أن تحرك المؤرخ ، وتدفعه الى التساؤل مجدداً عن معنى الحياة البشرية وعن القوى الدافعة فيها وعن الكون وما وراء الكون ، وتحمله على أن يتعمق ويعمق ويحيي نظرته الفلسفية التعليلية كي يفهم التاريخ على أساسها فهماً صحيحاً . هذا ، إذن ، هو تأثير الأزمات في المؤرخ نفسه من نواحي عمله الثلاث العلمية ، والتأليفية ، والفلسفية . وخلاصته ان هذه الاضطرابات تهيب بالمؤرخ الى ان يفهم من جديد نوع عمله ، ويسبر غوره ، ويحدد غايته ، وينفذ الى باطنه . وبكلمة واحدة : انها تهز المؤرخ هزاً ، فتخلق منه انساناً جديداً ، وبالتالي مؤرخاً جديداً

* * *

والآن نتقدم الى ما وراء المؤرخ نفسه لنتساءل عن رسالته في عصور الاضطراب الى مجتمعه . ان هذه الرسالة مزدوجة : عامة وخاصة . أما العامة فسبيلها ان يحاول المؤرخ ، بفعل فهمه الجديد للتاريخ ، أن يساهم في تنوير من يتصلون به وايضاح نظرتهم الى الماضي والحاضر ، فيعمل على نشر الحقائق الصحيحة الثابتة عن ماضي أمته والبشرية ، ويهتم اهتماماً خاصاً بتلك التي تتعلق مباشرة بالحاضر وبحاجات امته الروحية الأساسية ، ويسعى الى بث فهم جديد لمعنى هذه الحقائق وقيمتها بالقياس الى القيم النهائية في الحياة . وبالايجاز ، ان اضطراباً عميقاً كالذي نمر به الآن ، اذا فهم المؤرخ حقيقة معناه ومؤداه لخليق بان يجعله ينهض بعمله الأساسي في الحياة على وجه أفضل وأسمى مما كان عليه قبلاً ، وأن يؤدي رسالته الخاصة الى مجتمعه تأدية مشبعة بفكر حي وروح جديدة

أما الرسالة الخاصة فتتعلق بطبيعة الاضطراب وبنظر المجتمع اليه وتأثره به . ففي مثل هذه الاوقات تتساقط الاسئلة على المؤرخ من كل صوب وناحية مستفهمة عن أسباب الاضطراب المباشرة وسيره الحاضر ، ثم ، بصفة خاصة ، عن نتيجته ونهايته . متى تنتهي الحرب ، وكيف ، ولمن يكون النصر ، وعلى اي وجه ؟ وغيرها من الاسئلة التي قلما يساعد فهم المؤرخ للماضي على حلها ، لأن الجواب عليها يتطلب معرفة حقائق دقيقة هي اليوم ، بفعل الصراع القائم ، محجوبة عنا بشتى الوسائل . فأسباب الحرب العظمى الماضية مثلاً وكثير من اسرارها لم تتجل لنا الا بعد ان ألقت تلك الحرب أوزارها ونشرت الوثائق المتعلقة بها . فمن العبث اذن ان تنبأ بمعلوماتنا الضئيلة عن المستقبل ، أو ان نحكم عليه بالقياس الى الماضي ، فان التاريخ ، بعكس مايقول المثل السائر ، لا يعيد نفسه وحوادث الحاضر بلغت حداً من التعقد والاشتباك لا يصح معه أن نطبق عليها أحكام الماضي لنقرر مسائل محدودة دقيقة كالتي ذكرناها وانما لنوضح

تفكيرنا في معنى الاضطراب القائم وفي أسبابه البعيدة وفي أثره الباقي في حاضرنا ومستقبلنا. وبكلمة اخرى: ان المؤرخ يجب أن يتخلى عن وظيفة الصحفي المهتم بجزئيات الحاضر والمستقبل ليدرس الخطوط الكبرى ويتطلع الى الآفاق البعيدة

وأول رسالة من هذا القبيل يبسطها لنا التاريخ هو أن الضيق والألم والقلق التي يجرها علينا الاضطراب الحاضر ليست أول ما عانته أمتنا أو الانسانية من الشدائد والأهوال. فكل من درس تاريخ هذه البلاد العربية يعرف ما مرَّ عليها من حروب وغزوات، ومن مجاعات وأوبئة وفتن، حتى انهُ ليعجب أحياناً كيف بقي فيها احياء الى الآن، وكيف استطاع آباؤنا وأجدادنا أن يتحملوا ما رواه المؤرخون من المصائب والرزايا

فراجع في أذهاننا الحروب والمنازعات التي قامت على مسرح هذه البلاد منذ فجر التاريخ بين المصريين والبابليين والاشوريين والحثيين، ثم بين الفرس واليونان والرومان والعرب، ثم بعد استقرار الحكم العربي بين الدول والاحزاب والشعوب المختلفة، ولنذكر كذلك الغزوات الطاغية من الشرق كالأتراك والمغول ومن الغرب كالصليبيين وسواهم من شعوب اوربا. لنذكر هذا كلهُ، ولنذكر ما صحبه من اضطراب اقتصادي واجتماعي وحربي، وما انزل بأسلافنا من أهوال وويلات. ثم لنذكر أيضاً الضربات الاقتصادية والطبيعية كالجوع والفقر والوباء والغلاء والاضطرابات الاجتماعية والعقلية والروحية، لنشعر عندئذٍ بأن أجدادنا قد خبروا ما هو أشد وأفظع من الضيق الناجم عن الاضطراب الحاضر، ولم تنقطع مع ذلك الحياة في هذه البلاد. واني أجتزئ من كل ما ذكرت بمثال واحد أقتبسه من كتاب نشره حديثاً الدكتور مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال من تأليف المؤرخ الشهير تقي الدين المقريزي بعنوان «اغاثة الأمة بكشف الغمة» يصف به المجاعات والاضطرابات التي وقعت في مصر منذ الأزمنة القديمة الى أيامه، وقد خبر هو بعضها في حياته. هاكم وصف المجاعة التي حدثت في أيام المستنصر بالله، الخليفة الفاطمي الذي تولى الحكم في مصر بين سنتي ٤٢٧ و٤٨٧ هـ. (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) ومن كان منا لا يزال يذكر أهوال الحرب الماضية او يقلق من الضيق الذي نعانيه الآن او الذي ينتظرنا في الأيام المقبلة، فليعتبر بما يسمع من أهوال الماضي :—

«ثم وقع في أيام المستنصر الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره، وكان أمده سبع سنين. وسببه ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل، وعدم من يزرع ما شمله الري. وكان ابتداء ذلك في سنة سبع وخمسين واربعمائة، فنزع السعر، وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي من الزراعة، وشمل الخوف، وخيفت السبل براً وبحراً، وتعذر السير الى الأماكن الا بالخفارة

الكثيرة وركوب الغرر . واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر ديناراً ، وأبيع الأردب من القمح [بثمانين ديناراً] وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير . وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، وتحرز الناس ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه . ثم آل الأمر الى ان باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره . وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ، وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن « الجوع ! الجوع ! » ، تردن المسير الى العراق ، فتسقطن عند المصلى ، وتمتن جوعاً . [واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه] وجاءه الوزير يوماً على بغلة فأكلتها العامة ، فشنق طائفة منهم ، فاجتمع عليهم الناس فأكلوهم . وأفضى الأمر الى ان عدم المستنصر القوت ، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث اليه كل يوم بقعب من فتيت من جملة ما كان لها من البر والصدقات في تلك الشدة حتى انفقت مالها كله وكان يجل عن الاحصاء في سبيل البر . ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به اليه ، وهو مرة واحدة في اليوم والليلة .

ومن غريب ما وقع ان امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقداً لها قيمته ألف دينار ، وعرضته على جماعة في ان يعطوها به دقيقاً ، وكل يعتذر اليها ويدفعها عن نفسه الى ان رحمها بعض الناس وباعها به تليس دقيق بمصر . وكانت تسكن بالقاهرة ، فلما اخذته اعطت بعضه لمن يحميه من النهابة في الطريق ، فلما وصلت الى باب زويلة تسلمته من الحماة له ومشت قليلاً ، فتكاثر الناس عليها وانتهبوه نهباً . فأخذت هي أيضاً مع الناس من الدقيق ملء يديها لم ينبها غيره ، ثم عجنته وشوته ، فلما صار قرصة أخذتها معها ، وتوصلت الى أحد أبواب القصر ، ووقفت على مكان مرتفع ، ورفعت القرصة على يدها بحيث يراها الناس ، ونادت بأعلى صوتها : « يا أهل القاهرة ! ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت علي هذه القرصة بألف دينار » . فلما اتصل به ذلك امتعض له ، وقدح فيه وحرك منه ، وأحضر الوالي وتهدده وتوعده ، وأقسم له بالله لئن لم يظهر الخبز في الأسواق وينحل السعر والا ضرب رقبته وانتهب ماله . فخرج من بين يديه ، وأخرج من الحبس قوماً وجب عليهم القتل ، وأفاض عليهم ثياباً واسعة وعمائم مدورة وطيالس سابلة وجمع تجار الغلة والخبازين والطحانين ، وعقد مجلساً عظيماً ، وأمر باحضار واحد من القوم ، فدخل في هيئة عظيمة ، حتى اذا مثل بين يديه قال له « ويلك ! ما كفاك انك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان الى ان أخربت الأعمال وعطلت الغلال ، فأدى ذلك الى اختلال الدولة وهلاك الرعية ؟ اضرب رقبته ! » . فضربت في الحال ، وتركه ملقى بين يديه . ثم

أمر باحضار آخر منهم، فقال له: « كيف جسرت على مخالفة الأمر بالنهي عن احتكار الغلة، وتماديت على ارتكاب ما نهيت عنه الى أن تشبه بك سواك، فأهلكت الناس ؟ اضربوا عنقه ! » ، [فضربت في الحال] . « فاستدعى آخر فقدم اليه الحاضرون من التجار والطحانين والخبازين، وقالوا : « أيها الأمير ! في بعض ما جرى كفاية ونحن نخرج الغلة وندير الطواحين ، ونعمر الأسواق بالخبز ، ونرخص الأسعار على الناس ونبيع الخبز رطلاً بدرهم » . فقال : « ما يقنع الناس منكم بهذا » . فقالوا : « رطلين » ، فأجابهم بعد الضراعة ، ووفوا بالشرط . وتدارك الله الخلق وأجرى النيل ، وسكنت الفتن ، وزرع الناس وتلاحق الخبز ، وانكشفت الشدة وفرجت الكربة . وخبر هذه الغلوات مشهور، وفي هذا القدر كفاية من التعريف بها ، والله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ والِيهِ تُرْجَعُون » (1)

ولئن كانت هذه النكبة من أعظم النكبات التي حلت بمصر ، فليست الوحيدة من نوعها ولم يكن ما وقع فيها من الغلاء والجوع والاحتكار وأكل الحيوانات والبشر غريباً عن اختبارات هذه البلاد في القرون الوسطى . ففي المائتين والاثنتين والثلاثين سنة بين ٦٧١ و ٩٠٣ هـ يذكر المؤرخون ما يقارب اربعين سنة مختلفة وقع فيها وباء أو غلاء في مصر أو في الشام أو في كليهما معاً ، أي مرة كل ست سنوات تقريباً ، ويصفون أكثر هذه المحن وصفاً يدل على شدتها وما خربت من البلاد وما أفنت من الناس . فرسالة المؤرخ الذي رافق امته في محنها المتتابعة هذه ، وتألم لآلامها وجروحها ، هي رسالة الطمأنينة والشجاعة ورباطة الجأش هي الدعوة الى الأعصاب الهادئة ، والقلوب الصامدة والارادة الحازمة . هي ان ما نخافه من الاضطراب الثائر ليس أعظم مما حلّ بنا كأمة في الأيام الماضية ، فلِمَ الخوف والذعر وتشتت الذهن واضطراب الرأي وضياع النفس ؟ ان الذي لم يختبر الا الأزمة الحاضرة يحق له ان يضطرب لها ويقلق من نتيجتها . اما الذي يرتكز على صخرة الماضي القوية الممتدة أسسها الى أقدم عصور التاريخ البشري، فهو مع تألمه المسبق للشدة والاضطراب في العصر الحاضر، يستطيع ان يجابهما بالايمان الثابت والذهن الصافي والعزم الأكيد والنفس المسيطرة . هذا الايمان والصفاء والعزم والثبات — هذا هو رسالة المؤرخ الاولى الى مجتمعه في ايام الهول والاضطراب

ثم ان المؤرخ يعلم ان أمته — والبشرية عامة — لم تصمد لهذه الأهوال فحسب ، بل تغلبت في النهاية عليها وتقدمت بالرغم منها لأنه يعلم ان الحاضر، مع كل ما ينطوي عليه من شر وفساد، هو خير من الماضي ويمثل تقدماً عليه وارتقاء عنه، فهو ان استوحى ما يشع من الماضي من مجد وزهو وفخار ، فليس ذلك لكي يعيد ذلك الماضي بكامله ويبني المستقبل على صورته وشكله . انه لا يلتفت الى « عصر ذهبي » انقضى فيسعى الى بعثه واحيائه . لا ! ان المؤرخ الذي فهم روح

(1) ص ٢٤ — ٢٥ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٠)

الماضي ينظر أبداً الى الامام ، لا الى الوراء . وهو يميّز عند درسه الحياة الماضية بين عناصر الجمود والرجعية ، وعناصر التحفز والتقدم ، فيوجه النظر الى الثانية ، ويعمل مع الثانية على دفعها وتغليبها على الاولى . فعلى المؤرخ ان ينبه الى خطر عظيم يتعرض له دوماً ، خطر الذوبان في الماضي والانحلال في عصر سابق زينه الخيال بألوانه الزاهية فتعانق اليه نفسه وتعيش فيه بعيدة عن الحاضر ومشكلاته والمستقبل وآماله . انه والحق ، خطر جسيم قد استولى على كثيرين من طلاب هذا العلم ، بل من قادة العالم العربي ورجاله على العموم . وليس مثل الازمة والاضطراب قوة توقظ المؤرخ وتنقذه من هذا الخطر ، وتوجه نظره الى الامام ، وتصرفه الى الاهتمام بعناصر التقدم والنمو في تراث امته ومجتمعه . فرسالة المؤرخ الثانية في عصور الاضطراب هي رسالة التفاؤل بالمستقبل ، والتطلع ابداً الى الامام

على ان هذا التفاؤل ليس من النوع الذي يشل الجهد ويكتفي بالاستسلام الى الاقدار والقوى الكون العمياء ؛ لان المؤرخ يعلم حق العلم ان التقدم اذا كان قد حدث فبفضل اولئك الافراد والجماعات الذين عملوا صادقين في شتى نواحي النشاط الانساني ، فتغلبوا على الصعوبات المادية والمعنوية وقادوا أممهم والانسانية في معارج الرقي والنجاح . وهو يعرف ضرورة بذل هذا الجهد في عصور الاضطراب خاصة ، إذ ان حياة الأمة وعقليتها تكونان في هذه العصور في صورة مائعة بفعل القوى الشديدة التي تضغط عليهم ، ولذا تصبح الحاجة ماسة الى قادة يفهمون الموقف حق الفهم ، ويدفعون تلك الحياة المائعة الى مجاريها الصحيحة ، فالمؤرخ يؤمن بمبدأ القيادة ، ويلاحظ ان الأمم في الأزمنة الماضية لم تتغلب على الأزمات والمحن ، الا بفعل قادتها الذين فهموا حاجتها وحددوا غايتها ، ونظموا قواها الداخلية ودفعوها نحو تلك الغاية . والأمة التي لا يولد الاضطراب والشدة فيها قادة من هذا النوع هي أمة بائسة حقاً ، وعليها ان تكابد وتتألم الى ان يولد هذا الألم فيها القادة الذين يسيرون بها في طريق الاستقرار والتقدم . والمؤرخ يذكر أمته في عصور الاضطراب ان الاضطراب على ما فيه من ضيق ومحنة ، مفيد لها لأنه لا ينفك « يمخضها » حتى يخلق منها القادة النافذين فهماً وعملاً الذين يبنون فيها حياتها الجديدة

كذلك يذكر المؤرخ أمته في عصور الاضطراب بأن الشدائد الخارجية مهما عظمت لا يمكن ان توهن قوى الأمة وتوردها موارد الهلاك ، وبأن الضعف الحقيقي انما هو الذي يصيب الأمة في داخلها . فان درس الماضي يبين له ان الغزوات الخارجية قلما قضت على أمة لم ينخر جسمها سابقاً جراثيم الفساد والانحلال ، فالرومان مثلاً لم تهدم ملكهم قبائل الجرمان الغازية كما يعتقد البعض ، وانما كان الخلل الاقتصادي والاجتماعي والروحي قد سرى فيهم واستشرى ، فما كان على الجرمان الا ان ضربوا ضربة واحدة حتى سقط البنيان الروماني بكامله . ولذا

فالمؤرخ الواقف على هذه الحقائق يدعو الأمة الى المحافظة على عصبها ومنابع قواها الروحية ، والى تعزيز مناعتها ، وتنمية مواهبها ، ويعلق اعانه عليها نفسها ، ويركز نظره فيها ، فلا يتطلع الى هذه او تلك من قوى الخارج رابطاً مقدراته بها ، او مؤمناً بأن حياته وتقدمه متوقفان عليها . فمن رسالة المؤرخ الى أمته في عصور الاضطراب ، إذن ان يوجه نظرها الى ذاتها ، وان يثبت إيمانها في ان تقدمها او نجاحها — بل بقاءها او موتها — معقودٌ على ما تبذل من جهد وما تبدي من قوة ، وان خلاصها يقوم في نهاية الأمر على اعتمادها على نفسها

ولكثرة ما يشاهد المؤرخ عند درسه الماضي من خطوب وأهوال ، ولوفرة ما يلقى من موت الأفراد واضمحلال الجماعات ، يتولد عنده الشعور بقلة خطر الفرد بالقياس الى المجتمع ، والى القوى التي تضطرم فيه . ولذا فانه لا يقلق على حياته قلقاً شديداً ، ولا يحصر نظره واهتمامه بنفسه وبالجماعة الضيقة المتصلة به لأنه يعرف انه قد يكون بين الذين قدر لهم ان يضحى بهم في سبيل مجتمعهم وكيانهم الأكبر ، كما ضحي بالألوف والملايين من البشر حتى بلغ المجتمع الانساني درجته الحاضرة . نعم ! ان غاية التقدم والرقي هي ان يضمن لكل فرد من البشر سلامته وحريته وأوسع مجال للنمو والسعادة ، ولكن المؤرخ يعلم انهُ في سبيل الوصول الى هذه الغاية قد بذل كثير من الأفراد في الماضي حياتهم وان كثيرين غيرهم سيبذلون في المستقبل حياتهم ايضاً ، فلا عجب اذا كان هو نفسه جزءاً من الثمن الذي تدفعه امته لتنال حريتها وتؤمن سعادة أفرادها . ومن أجل هذا وجب عليه — اذا كان قد فهم رسالة التاريخ حق الفهم — ان يكون في مقدمة الذين يبذلون نفوسهم في سبيل الحق ولأجل سيادة المبادىء العليا في الحياة . انه يعلم — أكثر مما يعلم غيره — معنى الاضطراب النازل بأمته ، وانه يتطلب منها جهداً وتضحية ، بل الحياة نفسها يقدمها بعض أفراد الأمة ليمكنوها من التغلب على محنتها ويبلغوا بها غايتها ، ولذا نراه في مقدمة العاملين على انهاض مجتمعه ، باذلاً كل رخيص وغالٍ في سبيل أمته وبلاده . هذا كله اذا كان فهم روح الماضي فهماً صحيحاً ، وشعر شعوراً داخلياً عميقاً بما حوله من اضطراب ، وانعكس هذا الشعور عنده في نوع من القلق النفسي لا يشتت روحه ويزعزع كيانه ، بل يجدده ويحييه ويخلقه خلقاً جديداً ، او بعبارة أخرى اذا كان قد عرف رسالتهُ الى مجتمعه على وجهها الصحيح

ان من المؤرخين من يكتفي بوظيفة التأريخ ولكن منهم ايضاً قلة تطمح الى ما هو أعظم من هذا وأسمى : الى ان تكون بين القوى التي تنظم الحياة وتصنع التاريخ . وعندي ان الأزمات والاضطرابات هي خير عامل ينبه المؤرخ الى هذه المرتبة العليا ، فاذا ما فهم جوهر رسالته في تلك الأوقات العصيبة وبذل جهده لتأديتها ، لم يكن مؤرخاً بالمعنى المعروف فحسب ، بل كان قوة لا يستهان بها في خلق أمته ، وعن طريق أمته في خدمة الانسانية جمعاء